هذا هو الريف :

بعثة طبية ... ! (*)

للأستاذ سيد قطب

« إلى المترفين فى المدينة أولئك الذين ينشدقون بإصلاح الريف وهم لا يدرون شيئاً عن هذا الريف »

كانت الساعة تقارب العاشرة صباحاً ... كانوا قد تلقوا الدرسين الأول والثانى فى مدرسة القرية ، ثم انطلقوا ... انطلقوا من الفصول كالعصافير الحبيسة حينما تنطلق من القفص بعد حبس طويل ، انطلقوا يقفزون ويركضون ، ويزعقون ويتصايحون ، لغير ما قصد ولا غاية إلا تأكيد شعورهم بأنهم طلقاء بعد الحبس الطويل !

ثم لكى يفرغوا لنقل ما تحمله جيوبهم من بعض الأطعمة إلى بطونهم ، فلقد حملوه نحو ساعتين ، ولكن « النظام » فى الفصل لم يكن ليسمح لهم بعملية تفريغ الجيوب !

ثم لكى ينصرف أبناء الأغنياء منهم إلى « عشة عم خليل » بائع القصب والبلح ، فيشتروا منها بمليم !

ولم تكن هذه كل قيمة « الفسحة » ، فلقد كان لهؤلاء الأطفال مآرب فى تلك الفسحة القصيرة — ربع الساعة — لقد كانت المدرسة فى طرف القرية على حدود الحقول الواسعة . وإذا كانت وظيفة الحقل أن ينبت للناس وللماشية الحبّ والأبّ ، فلقد كانت له وظيفة أخرى عند تلاميذ المدرسة ، وعند غيرهم من سكان القرية ... إنه يقوم لهم بوظيفة المراحيض العمومية !

انطلق التلاميذ إذن فى كل مكان يفرغون ما تحمله جيوبهم فى بطونهم ، وما تحمله بطونهم فى الحقول القريبة ... ولكنهم فوجئوا بجرس المدرسة يدق دقاً عنيفاً متواصلا قبل الميعاد المقرر للحصة الثالثة .

وانتظموا صفوفاً بعد قليل ، ولم يسمعوا تلك النداءات المعهودة التى يؤدون على أساسها بعض الحركات الرياضية الساذجة ، ولكنهم سمعوا ناظر المدرسة يلقى عليهم خبراً غريباً عجيباً لم يسمعوا به قبل الآن ... إنهم الآن ذاهبون إلى « دُوّار العمدة » ، وسيسيرون فى الطريق بنظام . وكان هذا يقتضيهم أن يقطعوا شوارع القرية كلها تقريباً ، فدوار العمدة فى أقصى الطرف الآخر من القرية ، والناظر يحذرهم من الإخلال بالنظام فى أثناء السير ، والالتفات إلى اليسار أو إلى اليمين ، وبخاصة عند مرورهم « بسوبقة القرية » ، حيث يعرض القصب والبلح والتفاح البلدى الفج !

يذهبون إلى دوار العمدة ؟ ولماذا ؟ وهم لم يدخلوا هذا الدوار قط ، وإن سمعوا من آبائهم وأهليهم أنهم يذهبون فى بعض الأحيان ، عند ما يستدعيهم أحد الخفراء ، أو لأداء شهادة ، أو للشكوى من بعض الفلاحين ... أما هم ... هم تلاميذ المدرسة ، فما لهم وكل هذه الأشياء ؟

وكان هو جريئاً بعض الشىء على ناظر المدرسة ومدرسيها ، فاستطاع أن يسأل : ولماذا نذهب إلى دوار العمدة ؟

سأل ، ويا ليته لم يسأل ! لقد كان الجواب كارثة عظمى لم تخطر له ولا لزملائه على بال .. إن « الحكيم » هناك — أى الطبيب — وهو يطلبهم جميعاً !

الحكيم ؟ يا للداهية ! اليوم دنت آخرتهم ولاشك ، فمهدهم بالحكيم هذا ألا يزور القرية إلا فى يوم أغبر أكدر ، يوم يقع فى البلد قتيل ، ثم تحضر « النيابة » ، ويحضر معها الحكيم لتشريح الجثة !

والنيابة والحكيم هذان هما الشيئان الهائلان المخيفان فى القرية كلها . أما فى أذهان الأطفال ، فهما « هيولى » لا يتصورون لها شكلا ولا حجما ، فخيالهم الصغير يستطيع أن ينطلق فى تصورهما كيف شاء ، ولكنه لن يميزهما بحدود مما يميز الأشخاص والأشياء .

ثم ها هو ذا الحكيم يطلبهم ، يطلبهم هم بالذات ، فما ذا يكون الأمر ؟

إنهم لا يعرفون لماذا يطلبهم مطلقاً ؛ ولكنهم واثقون

(*) فصل من كتاب (طفل فى القرية) يظهر فى أول أبريل .

فى قرارة نفوسهم أنه لن يكون خيراً ، وأنهم لن يخرجوا من الدوار — إذا خرجوا — وهم سالمون مثلما دخلوا بحال من الأحوال !

وما وظيفة الحكيم ؟

أليست وظيفته أن يشرّح جثث الموتى ، وأن يبقر بطون المصابين ، أو يقطع أيديهم وأرجلهم لمجرد الإيذاء ، أو ليكى يفحصها ويلتذ بفحصها ؟ أو أن يسقى بعض المرضى « الفنجان » — أى السم — ليموتوا ، حتى لا يتعب فى علاجهم ، أو تلبية لرغبة العمدة الذى يرشوه للتخلص من خصومه الذين يصابون فى الحوادث !

فما هم وهذا الحكيم ؟

إنهم ليسوا قتلى يشرحهم ، وليسوا مصابين بقطع أوصالهم ، أو يسقيهم « الفنجان » ... ولكن ، أو يستدعيهم إلا لأمر ما ؟ أخف شىء يصنعه بهم هو « التجريح » ... (وهو الاصطلاح الذى يطلقونه على عملية التطعيم) ، تلك العملية الرعبة التى يندب لها بعض معاونى الصحة ، وبعض المرضين فى الحين بعد الحين ، فتروّع القرية ترويعاً ... وما إن يعلن أن فى البلد « الحكيم الصغير » (تمييزاً له من « الحكيم الكبير » الذى يطلبهم الآن والذى يرافق النيابة دائماً ولا يحضر منفرداً) ما إن يعلن هذا فى القرية حتى ترتج وترتجف ، فتخرج الأمهات إلى الشوارع مولولات مذعورات يلتقطن أطفالهن من كل مكان فى ذعر وعجلة ، ثم يغلقن على أنفسهن الأبواب ، ويصعدن إلى السطوح استعداداً للقفز عليها من بيت إلى بيت ، فكثيراً ما يدق هؤلاء الشياطين الأبواب ، ويكسرونها بمساعدة الخفراء ، ويهجمون على من فيها « للتجريح » !

فأما من تستطيع القفز إلى الدور المجاورة ، فلن تقصر فى سلوك طريق النجاة ، وأما من لا تستطيع ، فإنها تختبئ فى صومعة الغلال ، أو فى خم الدجاج ، حيث لا يخطر على قلب « الحكيم » أنها هناك !

هذا هو الحكيم الذى يعرفونه ... فما بالهم بالحكيم الكبير الذى لا يحضر إلا مع النيابة ، والذى لا يقع أحد فى يده ، ثم ينجو إلا بمعجزة من معجزات القدر ، أو ببركة « تميمة » لولى من كبار الأولياء ؟ !

وارتجفت مفاصلهم جميعاً وهم يسمعون الخبر الفاجع ، واصفرت وجوههم ، وعلا صوت بعضهم بالنحيب والعويل !

* * *

ووصلوا إلى الدوار ، ولا يعلم إلا الله كيف وصلوا . ووقفوا صفاً طويلا . أوله فى داخل الدوار — أى فى منطقة الخطر — وآخره فى الشارع أمامه ... وعن اليمين وعن الشمال وقف الخفراء بينادقهم « ولبدهم » الطويلة (جمع لبدة) ؛ ووقف أحد المدرسين فى أول الصف وأحدهم فى آخره . أما الناظر فقد سبقهم إلى الحكيم ليطمئنهم قليلا ، ويظهر أمامهم بمظهر الشجاعة المطلوب !

وكان ترتيب الصف حسب الطول ، فتقدم كبار التلاميذ وتبعهم الصغار أو القصار . وفى هذه اللحظة أصبح القصر نعمة كبرى من نعم الله !

فأما الذين تقدموا فلا يعلم عنهم أحد شيئاً إلا الله ، وأما المتخلفون فهم فى تطلع مستمر وقلق دائم ، ينظرون ماذا سيُفعل بأول الداخلين ، ليعرفوا نوع المصير الذى ينتظرهم بعد حين !

وكانت مفاجأة حينما بدأ بعض الكبار يخرجون ، بينما بقية الصغار لا يزالون فى الصف الطويل ... وانبعثت الصيحات والأسئلة التى لم يستطع كبحها الخفراء ولا المدرسون :

— دخلتم للحكيم ؟

— نعم دخلنا !

— وماذا صنع بكم ؟

— لا شىء ! غرّنا فى إصبعنا بالدبوس وشَفَطَ الدم !

الدم ! ولكن رؤيتهم لهم أحياء أصحاء مطمئنة على كل حال !

— وماذا هذا فى أيديكم ؟

— حق من الصفيح نأتى فيه بعينة براز وزجاجة صغيرة نأتى فيها بعينة بول !

— عينة براز وعينة بول ؟ ولماذا ؟

— لا ندرى ! هكذا طلب منا الحكيم !

— الحكيم نفسه طلب منكم هذا ؟

— لا ... الحكيم الكبير غزنا . والحكماء الصغيرون سلمونا الحق والزجاجة وطلبوا منا العينة للحكيم !

* * *

وتوارى الفزع قليلا ليحل محله التساؤل المصحوب بالدهشة والاستغراب لهذا الطلب الغريب !

إن أحداً لم يطلب منهم مثل هذا الطلب من قبل . وماذا يصنع الحكيم بهذه العينات العجيبة ؟ إنهم إن فهموا غزهم بالدبوس وشفط الدم ، فإنهم لا يفهمون طلب العينات . إن الغز والدم لازمتان طبيعيتان للحكيم ... ولكن هذا ! من يدرى ؟ إنه الحكيم !

وعلى سهولة الطلب ورخصه فإنه بدا صعباً عزيزاً فى كثير من الحالات ... لقد طلب إليهم جميعاً أن ينطلقوا إلى دورات المياه بمساجد القرية ، وأن يعودوا بعد نصف ساعة ومعهم المطلوب .

وليس كل تلميذ بمستعد لتلبية هذا الطلب فى مثل هذا الوقت ، ولا سيما أن « الفسحة » المدرسية كانت قد أفرغت ما فى البطون ... لو كان هذا قبل الفسحة لكان كل شىء حاضراً وبخاصة إحدى العينتين التى لا تأتى هكذا عند اللزوم !

فأما الذين كان فى أمعائهم بقية فقد انطلقوا مطمئنين ، وأما الذين أحسوا أن أمعاءهم لا تستجيب لهم ، أو حاولوا ولم يفلحوا ، فقد علا وجوههم الاصفرار ، وارتفعت دقات قلوبهم من الخوف ، وركبتهم الحيرة التى تركب المذعورين !

ماذا يصنعون ؟ وكيف يعودون إلى الدوار ، أو كيف يغيبون عن الموعد المرسوم ؟

إن أقل ما يتصورونه إن هم عادوا فارغين أن يبقر الحكيم بطونهم ليتناول منها العينة المطلوبة أو أن يدخل فى أجسامهم قنوات طويلة لسحب هذه العينة . وفى الأولى الموت أو خطر الموت ، وفى الثانية العار أمام إخوانهم وعند القرويين !

وهنا تتفتق الحيلة ، وتبدو قيمة التعاون !

إن التلاميذ لإخوة ، فمتى تظهر قيمة هذه الأخوة إن لم تظهر الآن ؟ !

لقد انطلق المحرجون يرجون إخوانهم أن يمدوهم بمونهم ، وأن يتولوا عنهم ملء هذه الأحقاق !

وهنا تظهر الطبائع على حقيقتها . فالشدائد هى أفضل محك لها ! فأما ذوو الأصل الطيب والطبع النبيل من التلاميذ فقد تقدموا لمعاونة زملائهم بلا تردد . وأما قليلو الأصل وذوو الطبائع اللئيمة ، فبعضهم امتنع شفاء لحزازات قديمة ، وبعضهم تمنع لؤما وانتهازاً للفرصة !

ولكن هذا التعاون لم يسد الحاجة إلا إلى حدّ معين ، وبقى عدد من الإخوان الذين لا يجدون ما ينفقون ! ... وهنا تفتقت عبقرية أحدهم عن حيلة بارعة :

إن فى مراحيض المساجد متسعاً للجميع !

أما كيف كان ذلك ! فلا بد من بيان عن هذه المراحيض :

كان فى القرية نحو عشرة مساجد مبنية كلها على الطراز العتيق . وكانت دورات المياه بها عجيبة . فهى مؤلفة من « مغطس » هو حوض مبنى من الطوب ومطلى بالسمنت من الداخل والخارج ، يملؤه عامل خاص ، يمتح بالدلو من البئر ويصب فيه حتى يمتلىء . وفى الحائط الخارجى للمغطس ركبت صنابير تصل من البناء مباشرة إلى الماء بداخله . ومنها يتوضأ المصلون .

ولكن المغطس لا يستخدم فقط للوضوء . إنما هو الحمام المختار لعدد كبير من الناس الذين يعوزهم الماء فى بيوتهم للغسل ، فيذهبون إليه فى جنح الظلام قبيل الفجر ، حيث يتسورون حائطه ، ويرفعون غطاءه الخشبى ، ثم يغطسون ، فينقّون أجسامهم من الأوضار المادية والمعنوية ، ويدعونها هناك للمتوضئين !

ويلحق بدورة المياه المراحيض ، وبناؤها عجيب . فهى تقع فى صف طويل ، يفصل بين كل اثنين منها حائط ؛ ولكنها من الداخل متصلة بقناة مكشوفة يجرى فيها الماء للجميع من منفذ فى الحوائط الفاصلة بسعة القناة . وتملأ هذه القناة بالماء من البئر كما يملأ المغطس ومن هذا الماء الجارى المتصل ، يتناول المصلون وغير المصلين للاستنجاء بأيديهم ، وهم داخل المراحيض ، والماء يجرى ويتصل بالجميع !

أما بناء المراحيض ذاتها فأعجب . فالمرحاض يتكون من

« كتفين » يجلس فوقهما من يريد . وبينهما فجوة واسعة تضطر الجالس إلى أن يباعد مابين رجليه كى لايسقط فى الفتحة الكبيرة. فى هذه الفتحة يتساقط ما يتساقط ، فيتراكم قريباً من الجالس . لأن خزانات المساجد محدودة ، والعدد الذى يتردد عليها ضخم جداً — إذ ليس فى المنازل مراحيض إلا نادراً — وجميع الرجال والأولاد الكبار يلجأون إلى المساجد والحقول . أما النساء والأطفال فعلى سطوح المنازل متسع للجميع !

وتبقى هذه الحالة طوال السنة ، والرائحة التى لا تطاق تنبعث من هذه المراحيض المكشوفة ، والمواد النازلة على مرأى من الجالس لقضاء الحاجة ، والبعوض يتبادل مواقفه تارة على هذه المواد المكشوفة ، وتارة على وجوه الجالسين ، فإذا خلت منهم المراحيض أخذ طريقه إلى المصلين وإلى البيوت المجاورة جيئة وذهابا حيثما يريد !

وفى موعد خاص يستقدم « السُّرَكَاتِيَّة » أى الذين يكسحون المجارير . يستقدمون من المدينة القريبة بمقاولة خاصة لنزح خزانات مسجد أوعدة مساجد ، ولهذا النزح طريقة عجيبة .

إن العربات الخاصة لم تكن تستخدم هناك على النحو المتبع فى بعض المدن الخالية من المجارى . وما الداعى لهذه العربات ؟ وهناك طريقة طبيعية مقتبسة من البيئة الزراعية ؟ !

ألا تستخدم القنوات فى الحقول لنقل الماء من مكان إلى مكان ؟ فلماذا لا تستخدم كذلك فى نقل هذه المواد من المجارير إلى الحقول ؟ !

ألا إنها لتستخدم ! فما هو إلا أن تحفر قناة مكشوفة من المسجد الذى يراد كسح خزاناته إلى الحقول خارج القرية ، وتمر هذه القناة بالبيوت والحوانيت فى وسط الشارع ، ثم يربط جردل بحبل ويعلق هذا ببكرة ، ويقف عاملان يتناوبان فوق الخزان ، يملآن هذا الجردل من الخزان ويصبانه فى أصل القناة وبعد هنيهة يجرى التيار حاملا كل شىء إلى الحقول المحظوظة بهذا السماد الطبيعى الثمين !

هذا ويتفق أن تكون عدة مساجد متفرقة فى القرية فى حاجة إلى التطهير ، فتوفيراً للقنوات المتعددة ، توصل قناة بقناة ، وإذا بالقرية كلها شبكة واحدة من القنوات المتصلة ... وعلى سكان البيوت والحوانيت أن يتمتعوا بالمنظر الفذ والرائحة القوية أسبوعا أو أسبوعين ... فتلك بيوت الله ، ولا يجوز أن يتأذى أحد من فضلات المصلين !

* * *

قرب المواد المطلوبة فى فتحات هذه المراحيض العجيبة ، هو الذى فتق الحيلة البارعة التى نبتت فى ذهن هذا التلميذ المبقرى !

وما إن طلع بها على إخوانه الملهوفين ، حتى طلع عليهم الفرج بعد الضيق ... وماهى إلا دقائق حتى كانت الأحقاق كلها مليئة ، فتسلمها الحكماء فى اطمئنان عميق ... وسمح للتلاميذ بإجازة بقية اليوم ، فعادوا إلى منازلهم غير مصدقين !

* * *

وعلم فيما بعد أنها كانت بعثة طبية للقيام بإحصاء طبى عن حالات الانيميا والبلهارسيا والانكلستوما والإسكارس .

ولكنه لم يعلم كيف كانت النتائج التى دونتها البعثة فى إحصائها الرسمية الوثيقة !!!

سيد قطب

مديرية الأوقاف

تشهر وزارة الأوقاف بيع حوالى ١٨٧ ألف متر مربع صفقة واحدة من أرض مدينة الأوقاف الجديدة على شارع الحديوى اسماعيل بالدقى بثمن أساسى جنيه وأربعمائة مليم للمتر المربع ويدخل ضمن المساحة الشوارع الداخلية وبشرط أن يتحمل المشترى نفقات أعمال المجارى ورصف الشوارع الداخلية وكذلك الشوارع المحيطة بهذه الأرض وستعقد جلسة المزاد فى إدارة المدينة بديوان الوزارة فى الساعة العاشرة من صباح الإثنين ٨ أبريل سنة ١٩٤٦ . ويمكن الاطلاع على الخرائط والشروط بإدارة المدينة بالوزارة . ٣٨٧